التجديد فى الأدب

للأستاذ أحمد أمين

١

موضوع ثار فيه الجدل بين الكتّاب ، واحتـــدم فيه الخلاف بين الباحثين . هل أدبنا العربى يحتاج الى تجديد ؟ وهل سواء فى ذلك شعره ونثره ؟ وتعصب قوم للقديم يذودون عنه ويحافظون عليه ، ولا يسمحون بأى تغيير فيه . وهب المحدثون ينعون على المحافظين جمودهم ، وينذرونهم بسوء العاقبة إن هم ظلوا متمسكين بالقديم معرضين عن الجديد .

ولكن أسوأ ما يسوءنى فى هذا الموضوع وأمثاله الغموض والابهام ؛ فاذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربى جمجموا فى القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ، ولا واضحة الدلالة . وقد يجوز اذا حددوا أغراضهم وأبانوا عن مقاصدهم ، أن يرافقهم المحافظون أو أكثرهم ، ولا يكون ثمت خلاف ، وان يكن فخلاف معروف تقام عليه حجج واضحة .

من أجل هذا كله أحاول أن أعرض لوجوه التجديد التى يخيل الى أنهم يريدونها ، وأدلى برأيى فيها ، وأدعوا الكتاب أن يساهموا فيها بآرائهم ، ويستدركوا ما يفوتنى من حججهم وأغراضهم .

فى أدب كل لغة عناصر ثابتة لا يعتريها تغير ولا ينالها تجدد ، هى قدر مشترك من الأسلوب والتراكيب وتأليف الجمل ؛ به تمتاز اللغة من سائر لغات العالم . وبنفرد أدب الأمة عن آداب العالم — وقدر مشترك من الفن ، تتبين به الجيد من الأدب فى كل عصر وكل جيل ، هو فوق البيئة وفوق العوامل السياسية والاجتماعية ، وفوق ما يطرأ عليها من كل تغيير .

وهذا وذاك هما اللذان يجعلاننا نتذوق الأدب الجاهلى ، وندرك مافيه من جمال ، ونشعر بما فيه من نقص . ويستطيع الأديب منا أن يعرف خير ما قال امرؤ القيس ، وما قال طرفة ، وما قال زهير ؛ وهو الذى يجعلنا نتذوق ما فى القرآن الكريم من جمال فى الأسلوب والمعنى . وندرك ما فى العصر العباسى الى عصرنا هذا من نثر وشعر ، ونزنه ونقومه . ونحكم على بعضه بالحسن والجمال والقوة ، وعلى بعضه بالضعف والقبح والغموض . ولولا هذا القدر المشترك لانقطعت الصلة بيننا وبين القديم فلا نحس له جمالا ، ولا نتذوق له طعما .

وهذا النوع من العناصر لا يقبل تجديداً ولا تغييرا ، إذ بتغييره تضيع اللغة وتفقد مشخصاتها . فلو قلبنا تركيب الجمل رأساً على عقب ، أو لم نراع الوضع الذى تسير على نهجه اللغة ، لكان لنا من ذلك لغة جديدة ، ليس بينها وبين الأولى نسب .

وهناك نوع آخر من العناصر فى اللغة والأدب . خاضع للتغيير ، قابل للتشكل ، يتأثر بالبيئة وبدرجة الحضارة ، وبالأساليب السياسية ، وبالحياة الاجتماعية ، وغير ذلك .

وفى هذا النوع يكون التغير والتجديد . ومن أجل هذا التغير كانت الفروق واضحة بين الشعر العباسى والشعر الجاهلى ، فى التعبير والتشبيه والأسلوب والموضوع ونحو ذلك . ومن أجل هذا أمكن الأديب اذا عرض عليه نوع من الأدب ، أن يعرف عصره ولو لم يعرف قائله ؛ لأنه يستطيع أن يتبين خصائص كل عصر ومميزاته ، ويطبق ذلك على ما يعرض عليه من شعر أو نثر . ومن أجل هذا أيضاً ترى الفرق واضحاً بين لغة الأدباء الآن وبين لغتهم منذ عشرين عاما . وتجد الفرق واضحاً بين لغة الجرائد المصرية اليوم ، وبين لغة الجرائد السورية والعراقية ، وان كانت كلها تصدر باللغة العربية ، وتشترك فى العناصر الأساسية .

وهذا التغير أو التجديد فى الأدب وتأثره بما حوله خضع له الأدب العربى وكل أدب على الرغم من المحافظين والجامدين ؛ فقد رأينا فى العصر العباسى مدرسة وعلى رأسها الأصمعى لا تحب إلا الشعر الجاهلى ، ولا تحب من المحدثين إلا من قلد القدماء . ورأينا من كان يُنشِدُ الشعر فيستحسنه ، فاذا قيل له انه محدث استهجنه واتهم ذوقه ؛ ولكن هذه المدرسة أخضعها الزمن لحكمه ، ونشأ أدب عباسى جديد ،

احتفظ بالعناصر الأساسية للأدب العربي ولم يأبه لما عداها وكان الفرق كبيراً بين الأدبين كما قال الجاحظ : كم من الفرق بين قول امرئ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

وقول علي بن الجهم :

فبتنا جميعاً لو تُراق زجاجة
من الماء فيما بيننا لم تَسرَّب

وجاء المتنبي وعلى أثره المعري تجددا في الشعر من ناحية الأسلوب ومن ناحية المعاني ، فأنكر عليهما أدباء عصرهما نزعتهما الجديدة ، حتى رأينا من بين العلماء من أبوا أن يعدوهما في الشعراء . ثم حكم الزمن على هؤلاء العلماء ، ووضع المتنبي والمعري في مكانهما اللائق بهما .

وكان هذا هو الشأن في كل عصر ، حتى عصرنا الحديث ، نشأ قوم تأثروا بالأدب العربي القديم وحذوا حذوه ، ولم يخرجوا قيد شعرة عنه . فلو ركبوا الطائرة قالوا ركبنا الهودج والبعير ، وإذا استهلكت البنزين قالوا رعت السّعدان(١) ، وسموا الجنيهات الإنجليزية وعملة الورق دراهم ودنانير ، وإذا لم يكن لهم من الأمر شيء قالوا لا ناقة لنا ولا جمل ، وهم في الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل ، الى كثير من أمثال ذلك .

وتأدب قوم بالأدب الغربي الى ثقافتهم العربية ، فثاروا على كل ذلك واختلفوا بينهم في مقدار هذه الثورة . فقوم يريدون أن يتحرروا من الأوزان والتزام القوافي ، وآخرون يريدون أن يتحرروا من التشبيهات البالية والمجاز العتيق ، وآخرون يعافون بعض الأساليب القديمة ، والموضوعات التي جرى عليها السابقون . وكان صراع بين الطائفتين نعرض له بعد .

على كل حال دلتنا أحداث الزمان على أن عوامل البيئة في التغيير والتجديد لا يمكن أن تقاوم ، كما دلتنا على أن ليس كل تجديد يصادفه التوفيق ويتسع له صدر الزمن ، وأن نجاح من نجح من دعاة التجديد وفشل من فشل منهم إنما كان خاضعاً لقوانين طبيعية ظاهرة حيناً وخافية أحياناً ، وأن نوع التجديد إن كان صالحاً وكان مما تسمح به القوانين الطبيعية للأدب فمعارضة المعارضين لا يكون لها من أثر إلا أن تؤخر زمن الإصلاح ، وهو واقع لا محالة يوماً ما ، وإذا لم تسمح بها هذه القوانين كانت دعوة التجديد صيحة في فضاء ، أو خطا في ماء .

وبعد فأي أنواع التجديد يتطلبه المجددون ؟ وهل من خير الأدب العربي قبوله أو رفضه ؟

ان أول أنواع التجديد وأبسطها تجديد الألفاظ ، لأنها مادة الأديب الأولية ، وخيوطه التي ينسج منها قطعته الفنية .

وتجديد الألفاظ على ضربين :

(١) اختيار الألفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر . لأن لكل أمة في كل عصر ذوقاً خاصاً بها تختار ألفاظاً تناسبها وتأنس بها ، وتمج ألفاظاً لا تستحسنها ولا تستسيغها ، وذوق الأمة في حياة مستمرة ، فهو كذلك في عمل مستمر إزاء الألفاظ ، وأدباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة . فلو أن أديباً استعمل اليوم كلمة « هَبَيَّخ » للجارية الحسناء لكفت في إسقاط قصيدته أو مقالته . ولو استعمل كلمة بُعاق للمطر أو السيل لدل على فساد ذوقه ، وسوء أدبه . ومن أجل ذلك لا يستحسن في هذا العصر بعض ما كان يستحسن في عصور سابقة . فقد كان يستحسن من أبي الطيب قوله :

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة
الشمس تشرق والسحاب كَنَهْوَرا

ولكن كنهورا الآن ثقيلة في اللفظ كريهة على السمع . وهذا بديهي لا يحتاج إلى إطالة ـ وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديباً ، لقد أراد الأستاذان الشنقيطي وحمزة فتح الله أن يحيا غريب الألفاظ ويستعملاه في قولهم وكتابتهم ففشلا كل الفشل . وكان الناس يستظرفون ذلك منهما كما تستظرف فتاة حضرية لبست ثياب بدوية ، وفهموا أن ذلك ليس جداً من القول ، وليس طبيعياً أن تعيش بداوة القرن السابع في حضارة القرن العشرين . إنما يحيا الأديب يوم يوفق لاختيار الألفاظ الرشيقة التي تناسب ذوق عصره ، والعصر الآن أميل إلى السرعة والاقتصاد ، وكلاهما يتطلب الوضوح

(١) السعدان نبت من أفضل مراعي الإبل ، وفي المثل : (مرعى ولا كالسعدان)

والجلاء لا الغموض والغرابة .

لذلك أصبحت فى معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف فى دار الآثار .

والضرب الثانى : ألفاظ تخلق خلقا ، تلك الألفاظ التى تساير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات ، وما ابتكرت من فن وعلم ومعانى وآراء . واللغة العربية اليوم ، قاصرة كل القصور فى هذا الباب . فليس لدينا ألفاظ لكثير مما اخترع وابتكر ، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم تجادل العالم العربى فيها طويلا ولما يستقر على حال

وكان لقصور الألفاظ أثر كبير فى ضعف الأدب . فكيف يستطيع الأديب أن يصف حجرة وكل مافيها من أثاث ليس له ألفاظ تدل عليه ؟ وكيف يستطيع الكاتب أن يؤلف رواية ، وهو فى كل خطوة يعثر بمسميات لا أسماء لها ؟ ولذلك يهرب كثير من الأدباء من التعبير الخاص الى التعبير العام ، فاذا أراد أن يصف رجلا يلبس طربوشاً قال إنه يلبس عمارة أو قلنسوة ، والحقيقة أنه لا يلبس عمارة ولا قلنسوة ، وإنما يلبس طربوشا ، واذا أراد أن يقول إنه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية ، وهذا منتهى الفقر فى التعبير .

كل هذا حقن الأفكار فى أدمغة الأدباء ، وسبب ضعف الوصف والرواية وغيرهما فى الأدب العربى الحديث ، وجعل الأدباء يفرون الى الموضوعات الانسانية العامة ، والأفكار الميتافيزيقية ، فان نحن شئنا أن يكون الادب ظلا لحياتنا ، وحياتنا الآن ، وجب أن نحل مشكلة الألفاظ حتى يطلق الأدباء من أغلالهم ، وإلا ظلوا يدورون حول أنفسهم ، وظل أدبهم غذاء ناقصا للامة ليس فيه كل العناصر التى لابد منها للحياة .

وهناك تجديد فى مناحى أخرى غير الألفاظ نعرض لها فى مقالات تالية إن شاء الله ؟

الثور فى مستودع الخزف

للدكتور محمد عوض محمد

جعل الثور يطوف فى نواحى المدينة ، ويجول فى طرقاتها فى ساعة غفل فيها الرعاة ، وغاب الحراس . فلم يزل يمشى على غير هدًى ، حتى ساقه القدر المحتوم إلى مستودع الخزف :

فى دار صغيرة متعددة الحجرات . جمع أهل المدينة تراثهم الخالد — أو الذى حسبوه خالداً — من خزف قديم وحديث .

وصناعة الخزف أقدم صناعات الانسان جميعاً . بدأ يمارسها منذ آلاف السنين ، وهو بعد فى مثل سذاجة الأطفال . فكانت فى العصور الأولى شكولا ساذجة ، وصوراً بسيطة . يراد بها النفع والفائدة ، لا الزينة والحسن . فلا نقش فيها ولا تزويق ، ولا إتقان فى الصنع ولا إبداع . ثم لم تزل ترقى برقى الانسان ، وتمشى وإياه جنباً إلى جنب ، وتحاكيه فى تقدمه ورفعته ، حتى غدت فناً من أجل الفنون ، وصناعة من أشرف الصناعات . وأبدع فيها الخيال البشرى أيما إبداع ، فأصبح منها اليوم ما يعد تحفة القرون وفخار الفنون .

* * *

وهذه المدينة عريقة فى صناعة الخزف البديع ، قد نبغ فيها فى جميع العصور ، رهط من كبار رجال الفن ، فرفعوا فى العالم ذكرها . وحلقت شهرتها فى سماء الفنون . ولم يكن لها فى هذه الصناعة ضريب .

وفى هذه الدار الصغيرة ، قد أودع أهل المدينة خير ماأنتجته قرائح بنيها على مدى القرون ، لكى تكون معرضاً لهذه الصناعة . يزورها الناس فى كل آونة ، فتنعم عيونهم بما فيها من جمال باهر ، وتنعم نفوسهم بما يبعثه الجمال فى النفس من سعادة وغبطة . فكان بابها مفتوحاً النهار كله ، يقصد اليها الناس على الرحب والسعة ، فى كل ساعة من الزمان .

* * *

وفى ساعة نامت فيها ملائكة السعد واليمن ، واستيقظت